الخميـــــــس 18-10-2007

48- قـــــراءة فـى أحــــــلام فتــــــرة النقاهـــــــة (2)

(تذكرة بالحلقة الأولى) (الحلم 1)

نص الحلم (2)

دخلنا الشقة .. الفتاة فى المقدمة وأنا فى أثرها والبواب يتبعنا حاملا الحقيبة، الفتاة على صلة بى مؤكدة وكأنها (ولكنها) غير محددة. تركنا ترتيب الأشياء ودلفت الى الشرفة المطلة على البحر ساجا فى آفاقه غير المحدودة منتعشا بهوائه الرطيب منتشيا بهديره المتقطع، وإذا بصرخة تنطلق من الداخل فهرعت نحوها فرأيت الفتاة منكمشة مذعورة والنار تشتعل فى أعلى الباب وقبل أن أفيق من الصدمة دخل رجل صلب الملامح كأنما قدت من صخر وبإشارة من يده أنطفأت النار وتحول ذاهبا وهو يقول:

- ربما انقطعت المياه بعض الوقت،
- وغمرنى الارتياح فلم ابال بشئ.

غادرت الحجرة قاصدا السوبر ماركت لأبتاع بعض التموين المناسب.. ولما رجعت وجدت باب الشقة مفتوحا والبواب واقفا فدخلت إلى الحجرة قلقا فوجدتها عارية إلا من بقجة منتفخة بالملابس ملقاة على الارض وذراع بيجامتى يتدلى من فتحة فى رابطتها ولا أثر للفتاة فسألت:

ماذا جرى؟

فأجابنى البواب

- حضرتك أخطات الطريق وهذه ليست شقتك فأشرت إلى ذراع البيجاما وقلت:

- هذه بيجامتى

فقال الرجل بهدوء:

- يوجد من نوعها آلاف فى السوق

وملت إلى الاعتقاد بالخطأ متذكرا أنه توجد ثلاث عمارات متشابهة فى صف واحد وهبطت السلم بسرعة وفى الطريق رأيت الفتاة فى طرفه المفضى إلى ميدان مكتظ بالسيارات والبشر، فجريت نحوها حتى أدركها قبل أن تذوب فى الزحام.

القـراءة

الـفـتـاة فى المقـدمـة، وهـو فى أثـرهـا، والـبـواب يـتـبعـهـمـا حـامـلا الحقـيـبـة،

دخل الجمـيـع الـشقـة بهذا الـترتـيـب،

لا يـبـدو فى الأمـر أى احـتـمـال أن يـكـون ثـَمَّ نـداءُ مـن جـانـب الـفـتـاة يجذبـه إلـيـهـا، كـمـا كـنـا نـسمـع عن جـذب الـنـداهـة لـلـمـارة عـلى الـترعـة،

إلا أن: الـصلـة **مؤكـدة**، لـكـنـهـا (كـمـا قـرأتـهـا) **غير محددة**،

فـضلـت أن أتـصـور أنهـا **"لم تـتـحـدد بـعـد"**.

حضرتـنى هـذه الـبـدايـة بمثـابـة نـفـى لأسطـورة الـنـداهـة بـعـد أن شـوهـتـهـا الـعـلاقـات المعـاصـرة الـفـاتـرة الخـالـيـة مـن الـسحـر والجذب الـغـامـض، ذلـك الـنـداء الـسِّرى، المُغْرى، الـقـوى، الـواعـد، بـرغـم خطـر المجهـول، لابـد وأن يختـفـى مـع هـذا الـتـتـابـع المصفـوف، بـرغـم الـفـتـاة فى المقـدمـة.

ومـع ذلـك فـثـم يـقـين **بعلاقـة مـا** ، بـرغـم غـمـوضـهـا. يـقـينٌ دون جـذب أو وعـود.

الجذب كـان لـلـراوى دون الـفـتـاة وإلى الـطـبـيـعـة، مـهـمـلاً أو مـتـجـاوزاً فـتـور نـداء الـفـتـاة الـذى لم يـظـهـر حـتى الآن، الجذب كـان إلى المطـلـق، إلى الـبـحـر *"ساجـا فى آفـاقـه غـير المحـدودة"، مـنـتـعـشـا بهـوائـه الـرطـيـب، سـاجـا فى آفـاقـه غـير المحـدودة"*، هـذا الـتـجـاوز إلى المطـلـق كَشَفَ أكـثـر فـأكـثـر فـتـور الـنـداء الـغـائـب إلى الأخـرى (الآخـر) تـلـك الـتى حـلـت محـل الـنـداهـة، **لـتـلـغـيـهـا**.

ظـلـت الـفـتـاة فى الـداخـل بـعـيـدا عـن كـلٍّ مـن الـبـحـر وعـنـه، حـتى أعـلـن الحـريـق انـفـصـالهـا المذعـور.

اجـتـمـع الحـريـق فى مـعـبر الـتـواصـل (أعـلـى الـبـاب)، مـع انـطـفـائـه بـأمـرٍ مـن ذلـك الـتـصـلـب الـصخـرى المـتـمـثـل فى الـرجـل صـلـب المـلامـح، والـذى أطـفـأ الحـريـق بـإشـارة مـن يـده، فـاسـتـغـنى – ربمـا بـتـصـلـبـه – عـن مـاء المحـايـاة الـذى انـقـطـع حـتى قـبـل أن نحـتـاجـه لإطـفـاء الحـريـق.

يـنـتـهـى الـفـصـل الأول هـذه الـنـهـايـة الـتى سحـبـت صـاحـبـنـا مـن حـواره مـع المطـلـق، وفى نـفـس الـوقـت جمَّـدت الحـركـة، ولـوَّحـت بـزوال خطـر الـتـواصـل مـقـابـل انـقـطـاع المـاء والـتـصـنـيـم، فـهـو الانـشـقـاق الـنـمـطـى الـسـاكـن الـذى يـتـغـذى بـالـلا مـبـالاة كـأنهـا الـراحـة **(وغـمـرنى الارتـيـاح، فـلـم أبـال بـشىء)**،

فـإلى الـسـوبـر مـاركـت،

لـيـعـود، فـلا يجـد مـن نـفـسـه المـتـمـيـزة، إلاَّ آثـاره الـتى لم تـعـد مـتـمـيـزة،

هـذا الـبـحـث عـن مـعـالم الـذات الـتى تـصـبـح بـلا مـعـالم خـاصـة **(يـوجـد مـن نـوعـهـا آلاف فى الـسوق)** يـرجـع فى سـعـيـه لـلآخـر، إلى بحـثـه الأول عـن ذاتـه، لـيـسـت تـلـك الـتى كـادت تـذوب إيجـابـيـا فى المطـلـق

(البحر ساجا فى آفاقه) والتى أجْهَضَتْ ذوبانها صرخةُ مسِخ النداهة العاجزة الفاترة الفاشلة، ولكن ذاته المغتربة اللامبالية، الرتيبة التى عادت تتسوق فى السوبر ماركت، لتصبح مثلها مثل الآلاف التى فى السوق، بل ويصبح المحيط هو هو حيث العمارات متشابهة أيضا .

....

لكنها ليست النهاية، فطالما أن ثمة حياة ، فثم نداء ونداء ونداهة، لكنها تبدو أكثر نشاطا، وأجمل وعداً وسط زحام الواقع **بالبشر والسيارات،** شوقا إلى آخرٍ حقيقى محاورٍ متوجه هذه المرة إلى شرفة أجمل، وبحر أكثر رحابة، وأوسع آفاقا.

هذا الانجذاب إليه "معا، تتابعا أو سحراً، أو انتشاراً هو ما يميز سعى الإنسان المتصل إلى الاستجابة لندّاهة لا تفصله عن المطلق، ولا تختفى فتبهت ذاته فتصبح بلا معالم مثلها مثل أى ذات، ملقاة فى شقة فى عمارة مثل العمارات،

لكنها نداهة أخرى **تسرى بين الناس، وسط الزحام، تظل تعد جاذبة وهى تنادى، وهو يتبعها،**

لينتهى الحلم: لا هو يلحق بها

ولا هى تختفى
لا هو يهملها إلى الشرفة حين يجذبه المطلق
ولا هى تنكمش من حريق فاصل، ينطفئ بأمر متصلب، جنبا إلى جنب مع انقطاع المياه

......

إن ما يحافظ على العلاقات البشرية الحقيقية، ليس تحقيق التواصل بقدر ما هو استمرار السعى وسط الناس، مع الاحتفاظ بالمسافة تضيق لتتسع.

فإن كان ثَمَّ توجهٍ إلى المطلق، فليكن "معا إليه".
وإلا
فالحريق، فالجمود، فاللاماء، فالضياغ، فالنمطية
ها هى الحياة تُواصِلُ حفز سعينا إلى بعضنا البعض، وسط الزحام "إليه".

***

ملحوظة: لم نعد بأن نواصل لا نقد **"الأحلام"،** ولا "فى شرف صحبة نجيب محفوظ" بانتظام متلاحق، لكن شيخنا حاضر يوم الخميس دائما،

أطال الله عمره.

- قرأت كلمة "وكأنها" على أنها "ولكنها"، لأنها وصلت إلى وعيى الناقد هكذا، وهذا ليس من حقى، إلا أن السياق لم يسمح لى أن أقبل الكلمة كما طبعت، رجعت إلى النص الأصلى بخط اليد الذى كان ينشر فى نصف الدنيا مع الحلم، قبل مرحلة

الإملاء، فوجدت أن الكلمة هى كما نشرت مطبوعة، وليست كما قرأتها بوعيى النقدى، وبالرغم من ذلك أصررت على قراءتى متصورا أن الأستاذ - أو أى واحد - يمكن أن تحل كلمة محل كلمة بصفتها أخطاء كتابية - تماما مثل الأخطاء المطبعية- وعادة ما لا ينتبه الكاتب إليها إلا عند المراجعة، ولم تكن هناك أية فرصة أن يراجع محفوظ ماكتب، ليس فقط بسبب الخط الذى استعاد بعض معالمه بصعوبة شديدة، وإنما بسبب النظر، ولست متأكدا إن كان الحاج صبرى أو أحدنا كان يقرأ له كل ما كتب قبل أن يرسله للنشر أم لا، على أننى كثيرا ما كنت أرجع إليه إن لاحظت مثل هذه الملاحظات، وكنت أبدى له وجهة نظرى، وكان كثيرا (وليس دائما) ما يوافقنى على أنه كان يقصد ما وصل إلى.